

تفسير سورة العصر 3

الكاتب: عبد العزيز الطيفي

سورة العصر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَالْعَصْرِ ۝ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا
وَعَمِلُوا الصَّلِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّابَرِ ۝

قيمة التواصي بالحق والتواصي بالصبر

"إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّابَرِ"

[العصر: 3]: التواصي بالحق والتواصي بالصبر - على ما تقدمت الإشارة- أن ذلك فرع عن الإيمان وفرع عن العمل، يعني: هذه لا بد من وجودها للحفاظ على الباطن والحفظ على الظاهر، ((إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ))؛ هذان أصلان، ((وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ))؛ على ماذا؟ على الحق الإيماني القلبي والحق أيضًا العملي، تواصوا بالحق يذكر بعضهم بعضاً وتواصوا حينئذ بالصبر.

الإيمان على ما تقدم الكلام عليه: هو حياة الباطن كحياة قلب الشجرة، والعمل هو حياة الظاهر.

ممكن الإنسان يوجد في قلبه حياة ولا توجد في ظاهره حياة، ولكنها فترة زمنية معينة ثم يكون هذا الأمر إلى زوال، الإنسان قد يأتي ببذر ويسعها في التراب ثم يقوم بسقيها، فهل يستطيع أن يقول: إنها ميتة أو ليست بميتة؟ لا، كحال الإنسان أول ما يدخل الإسلام كاليهودي والنصراني تقول له: قل: أشهد أن لا إله إلا الله أشهد أن محمداً رسول الله، فيشهد أن لا إله إلا الله ويشهد أن محمداً رسول الله فتطلق عليه الإيمان، لكن هذا الإيمان لا يمكن أن يدوم وهو كحال البذر، لا يمكن أن يدوم حتى يتبعه بعد ذلك العمل.

ماذا تعمل؟ أنت الآن مؤمن، لا نستطيع أن نقول: إنك كافر، نعم، دخلت الإيمان، لكن هذه بذرة وضعناها فيك كما نضع البذر في الأرض ثم نقوم بسقيها اليوم وغداً وبعد غد ونحو ذلك، حتى ننظر هل تخرج شيئاً أم لا؟ هل يظهر منك عمل أم لا؟ إذا لم يظهر منك عمل إذا دعوى!

ولهذا الذي يضع بذراً في الأرض ثم يسقيه ثم يسقيه فلا يخرج فليعلم أنه

ميت، وأنه فعلًا وضع شيئاً ولكن القلب قد مات، في البداية كان حيًا ليوم أو لساعات أو نحو ذلك، ولكنه بعد ذلك زال.

ولأجل تلازم الظاهر والباطن جاء التواصي بالحق والتواصي بالصبر؛ حفاظاً على داوم العمل، لماذا؟ لأن المؤثرات في هذا عظيمة، الله عز وجل ما جعل إيمان الإنسان في دنياه حينما يؤمن باقيًا بلا مؤثر، كالحجر يضعه الإنسان ثم يجده بعد قرن أو قرنين على ما هو عليه.

النفس الأمارة بالسوء وأثرها على الإنسان

الله عز وجل جعل في ذلك مؤثرات ابتلاءً، ما هي هذه المؤثرات؟ المؤثرات في هذا ثلاثة:

أولها: نفس الإنسان الأمارة بالسوء، فقد جعل الله عز وجل فيها نوعاً من الانفلات؛ فلذلك تحتاج إلى مقاومة وتكبيل وعقل بالدين حتى تنفلت، وهذا من التواصي بالحق والتواصي بالصبر.

فالمؤمن يقيدها ويعينه غيره على تقييدها، بالنصح والتوجيه، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والإصلاح، وإظهار هيبة الحق وغير ذلك.

هذا من التواصي لبقاء هذا الأمر، الذي يعين الإنسان على نفسه؛ لهذا جاء في الشريعة جملة من الأوامر الموجبة لاجتماع الناس واحتلاط بعضهم مع بعض، لماذا؟ لأن هذا يقوى حرارة الباطن؛ لهذا أمر الله عز وجل بصلة الجماعة، وأمر بكثير من الأوامر الشرعية كالجهاد جماعة، وأمرهم بالائتلاف، واجتماع المسلمين في البلد الواحد تحت ولاية واحدة وتحت إمرة واحدة. لماذا الحث على الاجتماع؟ لأن الإنسان إذا كان منفرداً يذوب، مثل قطعة الثلج إذا وضعت منفردة، أو وضعت مع قطع جليد، أيهم تذوب أسرع؟

المنفردة بخلاف المجتمع؛ لهذا يقول النبي صلى الله عليه وسلم كما جاء في حديث أبي الدرداء عند الإمام أحمد وأبي داود قال عليه الصلاة والسلام: (ما من ثلاثة في قرية ولا بد لا يؤذن فيهم ولا تقام فيهم الصلاة إلا استحوذ عليهم الشيطان، فعليكم بالجماعة؛ فإنما يأكل الذئب من الغنم القاصية)، ثمة

هيبة يغرسها الله عز وجل في قلب الإنسان؛ لهذا يقول النبي صلى الله عليه وسلم: (صلاة الرجل مع الرجل أذكي من صلاته وحده)، يعني: تزكي بعضها، تعطى الإنسان نوعاً من الانضباط: (صلاة الرجل مع الرجل أذكي من صلاته وحده، وصلاة الثلاثة أذكي من صلاة الرجلين)، وهكذا؛ ولهذا الله سبحانه وتعالى أمر بكثرة الجمعة، كلما اجتمعت الأمة فإن ذلك أعظم على الديومة وأحفظ للحق الموجود الذي أمر الله سبحانه وتعالى به.

((وتواصوا بالحق)) : التواصي هنا إشارة إلى وجود أكثر من طرف يهيب بعضهم بعضاً، هذا ينصح هذا وهذا ينصح هذا، هذا لديه نزوة في المال الحرام، هذا لديه نزوة في البصر، هذا لديه نزوة في المأكل، هذا لديه نزوة في المسمع الحرام وغير ذلك، وهذا ليست لديه نزوة في المسمع وهذا لديه نزوة في الشهوات، وهذا لديه شهوة في الشبهات، ما كان منفذاً على قلبك يغلقه الآخر الذي ليس منفذاً عليه، ولديه منفذ ليس لديك تقوم بإغلاقه كذلك؛ لهذا أمر الله عز وجل بأمر الجمعة؛ ولهذا قلما يتوافق الناس في جانب الشهوات، تجد بعض الناس منضبطاً في شهواته، لكنه منفلت في جانب المال الحرام يتعامل بالربا ويصرف في هذا الجانب، وهناك من لديه انضباط في جانب المال الحرام، لكنه مسرف على نفسه في السماع المحرم أو في النظر المحرم هذا عكس ذلك، كل يغلق المنفذ الحرام الذي عند صاحبه بدائرة المبادلة؛ ولهذا أمر الله سبحانه وتعالى بالجمعة.

فإذا أردتم الحفاظ على الإيمان والحفاظ على العمل فتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر وهو شبيه بالسقي، فالإنسان -على ما تقدم- إن كان لديه شجرة فسقاها خرجت، ويستعين على ذلك بالتواصي مع غيره على سقيها على سبيل الدوام، كذلك القلب لا بد له من سقيا، ما هي السقيا؟ هي إدارة دائرة الإيمان والتواصي بالحق.

كثير من الناس يقول: أنا سمعت أن الصلاة واجبة، والصيام واجب، وقيام الليل فاضل ونحو ذلك، فيكفي ولا أحتاج أن أسمع! وهذا غلط، بل أنت تحتاج إلى هذا؛ لأن القلب يغفل، يقول النبي صلى الله عليه وسلم: (إنه ليغان على قلبي)، وهو من هو عليه الصلاة والسلام، (وإنني لأشتغله في اليوم

والليلة أكثر من سبعين أو مائة مرة)، لماذا؟ لأن القلب بحاجة وهذا أمر مشاهد؛ فالإنسان في أثاث بيته يأتي إلى طاولة تركها لأيام فيجد عليها غباراً معدما وقد كانت نظيفة، أليس كذلك؟ تحتاج إلى شيء من المعاهدة، كذلك القلوب والعقول تحتاج إلى شيء من المعاهدة، فلا يقول الإنسان: يكفي أخذت هذه المعلومة، نعم أخذت هذه المعلومة، لكن تحتاج إلى تثبيت هذا الشيء وزيادة غرسه.

ولهذا نقول: إن القلوب والعقول والأنفس بحاجة إلى استدامة الغرس حتى يثبت ذلك؛ ولهذا الله سبحانه وتعالى أمر بالتواصي؛ إشارة إلى أن الأمر لا يقوم في ذاتك، بل بحاجة إلى طرف آخر يعينك، يقوم الإيمان بك ذاتياً، يقوم العمل بك ذاتياً، لكن التواصي لا بد من طرف آخر يعينك، إذاً: يكمل الناس بعضهم بعضاً في باب الإصلاح: "إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبَرِ" [العصر: 3].

التواصي بالصبر

والتواصي بالصبر مهم؛ حتى لا يرد على الإنسان الملل، فالإنسان يمل حتى من العبادة والعمل الصالح، أمر جبلي لا يؤخذ عليه؛ ولهذا النبي صلى الله عليه وسلم -كما جاء في الصحيح-: (الما دخل عند أم المؤمنين زينب وجد حبلًا مريوطًا لها، فقال: ما هذا؟ فقيل: هذا لزینب تصلي من الليل، فإذا تعبت قامت عليه، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: مه! عليكم من العمل ما تطيقون؛ فإن الله لا يمل حتى تملوا)، هذا إشارة إلى معنى قد جاء في الحديث: (أن أحب العمل إلى الله أدومه وإن قل).

لماذا كان الدائم أفضل؟ نرجع إلى الشجرة، إذا أتيت شجرة ثم أفرغت عليها خزان ماء ليوم واحد ثم مضيت وتركتها، أيها أنسع: وأنت تقطر عليها على مدى سنوات، أيها أنسع؟ تقطر عليها على مدى سنوات؛ لأن الشيء القليل من الخير أفضل من الكثير المنقطع؛ لهذا من تلبيس إبليس على إقبال الإنسان إلى الحق أن يجد الإنسان من يسمع موعظة ويقرب قلبه إلى الله سبحانه

وتعالى، أو يكون من البعيدين عن الحق ثم يقبل إقبالاً كاملاً، من المداخل على بعض المقربين إلى الحق: أن الشيطان لا يستطيع أن يكبح جماح الإنسان؛ لأنَّه ليس رِبَّا حتى يقيـد النفوس ويقيـد القلوب، لكن لديه محاولات وسياسية يجرف، كحال السـيل حينما يأتيه يقوم بحرفه يميناً أو يساراً، أو بالـقليل منه أو شيء من هذا.

إذا رأى الشـيطان إقبالاً للإنسـان على الحق فأراد -مثلاً- أن يقوم اللـيل أو يؤدي جميع الـواجبات، ورأى إقبالاً منه شـديداً، أحياناً من سياسـية إـبليس يفتح له المجال ويدعـه، لماذا؟ يريد أن يفرغ كل شيء مـرة واحدة؛ ولـهذا أكثر الناس المقربـين على الحق إقبالاً واحداً ينقطعـون؛ لأنـه يعلم أنه إذا صـلـى اليوم اللـيل كـامـلاً -وهو قد كان على غير قـيـام من قبل- فإنه في اليوم الثاني سـيـنـقـطـعـ، لكن لو أخذـه إـبليس على سـبـيل التـدـرـجـ فإنـهـ يـعـنيـ إـعـانـتـهـ علىـ الاستـدـامـةـ.

ولـهـذاـ نـقـولـ: إنـ دـوـامـ العـمـلـ الصـالـحـ منـ الـأـمـورـ الـمـهـمـةـ وـالـمـطـلـبـ الشـرـعيـ؛ـ وـلـهـذاـ جاءـ فـيـ الشـرـيعـةـ مـسـأـلـةـ التـدـرـجـ فـيـ العـمـلـ الصـالـحـ،ـ فـيـ جـانـبـ التـرـبـيـةـ،ـ وـفـيـ جـانـبـ التـعـلـيمـ وـغـيرـ ذـلـكـ؛ـ حتـىـ لـاـ يـنـقـطـعـ إـلـيـنـسانـ؛ـ لـأـنـ إـلـيـنـسانـ بـطـبـعـهـ إـذـاـ أـخـذـ الـأـمـرـ كـلـهـ مـنـ أـوـلـ مـرـةـ مـنـ غـيرـ تـدـرـجـ فـتـرـ عـنـهـ بـعـدـ ذـلـكـ،ـ وـقـدـ جـعـلـ اللـهـ عـزـ وـجـلـ ذـلـكـ شـيـئـاًـ كـوـنـيـاًـ حتـىـ فـيـ تـكـوـيـنـ النـاسـ أـنـهـمـ يـخـلـقـونـ أـطـوـارـاًـ،ـ كـذـلـكـ يـنـبـغـيـ أـنـ يـكـوـنـ الـعـلـمـ أـطـوـارـاًـ حتـىـ يـشـبـهـواـ عـلـىـ مـثـلـ هـذـاـ الـعـلـمـ،ـ فـالـلـهـ عـزـ وـجـلـ مـاـ خـلـقـ شـيـئـاًـ مـرـةـ وـاحـدةـ وـإـنـماـ جـعـلـ ذـلـكـ عـلـىـ سـبـيلـ التـدـرـجــ.

تـواصـيـ أـهـلـ الـبـاطـلـ

قال: ((وتـواصـواـ بـالـحـقـ))ـ:ـ إـشـارـةـ إـلـىـ أـنـ ثـمـةـ تـواصـيـاـ بـالـبـاطـلـ،ـ وـأـنـ الـذـيـ أـرـادـهـ اللـهـ سـبـحـانـهـ وـتـعـالـىـ هوـ التـواصـيـ بـالـحـقـ،ـ الـمـنـافـقـونـ يـتـواصـونـ بـالـبـاطـلـ؛ـ لـأـنـ بـعـضـهـمـ أـولـيـاءـ بـعـضـ:ـ "يـأـمـرـونـ بـالـمـنـكـرـ وـيـنـهـونـ عـنـ الـمـعـرـوفـ"ـ [التـوبـةـ:ـ 67ـ]ـ،ـ إـذـاـ عـكـسـهـمـ أـهـلـ الـإـيمـانـ،ـ وـلـكـنـ أـهـلـ الـإـيمـانـ الـحـقـ هـمـ الـذـينـ يـأـمـرـونـ بـالـمـعـرـوفـ وـيـنـهـونـ عـنـ الـمـنـكـرـ،ـ يـأـمـرـونـ أـنـفـسـهـمـ وـيـأـمـرـونـ غـيرـهـمـ وـيـقـومـونـ بـتـوجـيهـهـمــ.

مراتب الصبر والأمور المعينة عليه

قال: "وَتَوَاصُوا بِالْحَقِّ وَتَوَاصُوا بِالصَّابِرِ" [العصر: 3] : الصبر في ذلك على مراتب متعددة، فمن الصبر المراد هنا: تصوير الإنسان وتثبيته على جانب العبادة، وتذكيره بالأمر الذي أمامه من الأجر والثواب الذي عند الله سبحانه وتعالى؛ ولهذا جاء في الشريعة معانٍ مرغبة للعمل أو محذرة منه في الكتاب والسنة مثل: بيان الثواب والعقاب على بعض الأعمال، وذلك داخل في دائرة تصوير الإنسان على عمل الخير، يعني: عليك أن تشد المسير إلى الله؛ فإن الأجل قريب، وعليك أن تثبت في مثل هذا العمل؛ فإن الثواب عند الله سبحانه وتعالى عظيم، وعليك أن تصبر في ترك المحرم؛ فإن العقاب عند الله عز وجل شديد، وهذا نوع من التصوير والتثبيت، لماذا؟ لأن للنفس نزوات ولها رغبات تميل إلى الراحة وتميل إلى الدعة.

وأعظم ما يفيد الإنسان في هذا: قصر الأمل بأن ينظر إلى أنه مقبل على الله، فالموت قد يأتيهاليوم وقد يأتيه غداً أو يأتيه بعد ساعة أو يأتيه بعد عام، كلما قصر أمله قرب من الله سبحانه وتعالى.

قال: "وَتَوَاصُوا بِالْحَقِّ وَتَوَاصُوا بِالصَّابِرِ" [العصر: 3] : مما يعين على التواصي في ذلك: الإتيان إلى مجالس الذكر، ومجالس العلم.

إن أعظم ندامة ترد على الإنسان أن يصل الخير إلى قعر داره أو عمله أو حيه أو نحو ذلك ثم يعرض عنه؛ ولهذا الصاحبان اللذان ذكر الله عز وجل أمرهما في النار، من وجوه الندامة التي ذكرها عنهما ما جاء في قوله: "لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي" [الفرقان: 29]، يعني: جاءني الذكر إلى حيث أنا ثم حرفي فلان، فهذا غاية الندامة أن يوفق الإنسان إلى شيء من العلم أو لشيء من المعرفة ثم يتمكن منه ثم ينحرف عن ذلك.

فليتوص المسلمون على حضور مجالس العلم، ومجالس الذكر، ومجالس التربية التي تعين الإنسان على الثبات في نفسه والتمسك بما أمر الله سبحانه وتعالى في ذلك، فهذا من أعظم ما يعين الإنسان: "وَتَوَاصُوا بِالْحَقِّ وَتَوَاصُوا بِالصَّابِرِ" [العصر: 3] : هذان الأمران هما اللذان يثبتان الإيمان في قلب

الإِنْسَانُ، وَيَقُولُونَ لَدِيهِ جَانِبُ الْعَمَلِ.

أثر شياطين الإنس والجن على العبد

كذلك أيضًا من أعداء الإنسان بعد نفسه الأمارة بالسوء: شياطين الإنس وشياطين الجن، ذكرنا أن أعداءه ثلاثة: نفسه الأمارة بالسوء، وشياطين الإنس، وشياطين الجن، وقد تجتمع هذه الثلاثة على الإنسان، قد يجتمع بعضها أو تجتمع هذه الثلاثة بضعف وقد تجتمع بقوة، وكلما تكالبت على الإنسان فعليه أن يدفعها بالتواصي على الحق مع غيره، كذلك أيضًا الصبر على مثل هذا الطريق والإكثار من القراءة فيما يسمى بفضائل الأعمال أو أحاديث الترغيب والترحيب التي تعين الإنسان وتشتتة على عمل الصالحة. فالإنسان يعمل ويكتح ويده إلى الوظيفة؛ لأنَّه يتذكر نهاية الشهر، وهذا نوع من الترغيب، وربما ينضبط بشيء؛ لأنَّه يستحضر العقاب عند المخالفة فيقوم بانضباطه.

هذا في الجانب الدنيوي، كذلك ينبغي أن يكون هذا في الجانب الآخر، وكلما كان الإنسان أبصر في جانب الثواب وفي جانب العقاب كان أكثر التزامًا وتمسكًا فيما أمر الله سبحانه وتعالى به من العمل الصالح وأكثر اجتنابًا لما نهى الله سبحانه وتعالى عنه وزجر.

العبر والفوائد العامة في سورة العصر

هذه السورة هي سورة عظيمة ينبغي للمؤمن أن يكثر من تدبرها وتأملها، والنظر بما فيها من آيات ومعانٍ وحكم ودلائل، ولو أراد الإنسان أن يتكلم عن جزئية واحدة منها لأسهب وأخذ من ذلك زمناً طويلاً، من جهة ما فيها من تفجر الحكم والدلائل والوصايا العظيمة التي أشار الله سبحانه وتعالى إليها فيها؛ ولهذا قول الشافعي: لو ما أنزل الله عز وجل على أمَّةٍ مُّهَمَّةٌ إِلَّا هُنَّا
السورة لكتفُهم، قول حصيف: لما في هذه السورة من ذكر جوانب الإيمان، والعمل، وجوانب التواصي وتماسك الأمة، وتصوير بعضهم بعضاً، وفيها أيضًا

الإشارة إلى الحرث على الثبات الفردي، والأمن من النفاق، واجتماع المسلمين مع رفاقهم أو الفرد مع الرفقـة الصالحة، واجتنابه للاختلاف السـيئ، كذلك أيضـاً اغتنام الوقت لأمر دينه وأمر دنياه، هذا منفر أيضـاً من المفرطـين في جانب ذلك الزـمن.

لهذا نقول: فيها من الوصايا والمعاني العظيمة شيء كثـير، ولو أراد الإنسان أن يتكلـم فيها أو يستنبـط ما تضمنته من عبر وأحكـام ودلـالـات وآدـاب وتربيـة ووصـايا، لتحـير الإنـسان مما فيها، ومن نـظر في كـتب التفسـير وجـد ذلك ظـاهـراً. أـسـأـل الله سـبـحانـه وتعـالـى أـن يـجـعـلـنـي وإـيـاـكـم مـن الـذـيـن آـمـنـوا، وـعـمـلـوا الصـالـحـاتـ، وـأـن يـجـعـلـنـا مـن الـذـيـن توـاصـوـا بـالـحـقـ وـتـوـاصـوـا بـالـصـبـرـ، إـنـه وـلـيـ ذلكـ وـالـقـادـرـ عـلـيـهـ، وـصـلـى اللهـ وـسـلـمـ وـبـارـكـ عـلـىـ نـبـيـنـاـ مـحـمـدـ، وـعـلـىـ اللهـ وـأـصـحـابـهـ، وـمـن تـبـعـهـمـ بـإـحـسـانـ إـلـىـ يـوـمـ الدـيـنـ.

الكلمات المفتاحية:

#سورة-العصر

تنويـهـ: نـشـرـ مـقـالـ أوـ مـقـنـطـفـ مـعـيـنـ لـكـاتـبـ مـعـيـنـ لاـ يـعـنـىـ بالـضـرـورـةـ تـزـكـيـةـ الكـاتـبـ أوـ تـبـنـىـ جـمـيعـ أـفـكـارـهـ.